الكتابة / المرأة (جدلية الحضور/ الغياب)

بايزيد فاطمة الزهراء
جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص:
فلسفة الحياة تقوم على أصول ثنائية مبدؤها(الرجولة/الأنوثة) غير أن المنظار معّتم، يرى خلطا ضبابيا لحساب الآخر وفق ثنائية(الحياة/العدم)، (الرجل/المرأة)، بحيث باتت الكتابة تجعل من الرجال البؤرة المركزية، بيد أن المرأة تحيا في الظل وفق جدلية (الحضور/الغياب)، بحيث غابت صورتها في الفلسفة اليونانية، ومثلت صورة الإنسان الناقص وأخذت مبدأ(الشر، والظلمة) مقابل الرجل الذي أخذ(الكمال، الخير، النور).
إلى أن جاءت"سيمون دي بوفورا" التي انتصرت لحرية المرأة، ورفضت تهميشها، لكن ما نادت به "سيمون" والنظرة التي تجعل من المرأة كائنا مجتزأ، وصرخة ليلى بعلبكي التي كانت من خلال الكتابة تتنفس كأنثى بين طيّات الصفحات لا لتقول الحياة بل كل الحياة، كانت كلها لتخرج من قوقعة الحلزون، لا لتموت كالفراشة في اليوم الذي تولد فيه على صفحات الآخر(الرجل)، بل لتقول كيانها/ذاتها، هي ولا أحدَ غيرها، ولتخرج من سيطرة "التاء" المربوطة المنحنية على جسدها، ومن "الميم" الساكنة التي مثلت لها ظل السنوات بعد "ألف اللّين"، كانت دوما ترتدي السواد، فهل بقيت منحنية للماضي أمْ واجهت البحر أو (يّم الكتابة) لتكتب بتحدٍ ذاتها.

Résumé:

La femme

(la polémique présence/ absence)

La philosophie de la vie se base sur des origines doubles ayant le principe (virilité/féminité), mais la vie est obscure, se voit un mélange brumeux pour le compte de l'autre selon la dualité (vie/inexistence)(Homme/femme) car l'écriture a mis de l'homme le foyer central tondis que la femme vit à l'ambre selon la polémique (présence/absence) d'ou elle n'avait aucune présence dans la philosophie grecque , elle a figuré l'être humain incomplet et a pris le principe(mal/obscurité) en face de l'homme qui a pris le principe(perfection bien/clarté) et qui a triomphé à la liberté de la femme et elle a refusé son écartement?

Et le cri de LEILA BAALABEK l'écrivain par l'écriture reprise cette femme entre les pages non pour dire la vie mais toute la vie et pour sortir du limaçon de l'escargot non pour munir le jour même ou elle est née sur les pages de l'autre (l'homme) mais pour dire son existence/ Sa vie, elle et nul autre, et pour sortir de la domination du(é) courbée sur son corps et du(m) qui a représenté pour elle l'ombre des années après le (A) était toujours habillée est-ce qu'elle est restée courbée vers le passé ou nom, affronté la mer ou (mer d'écriture) pour écrire en défit d'elle.

- تقول الشاعرة "حمدة خميس" من البحرين:

هذه المرأة التي تجلس قبالة البحر
... المرأة التي تجلس القرفصاء
المرأة المنحنية على جسدها كتاء مربوطة
المرأة التي يرتديها السواد

بين المبدأ والمنتهى
تجلس بين برزخين في عتمة الوجود
المرأة التي تحدق في أفق غامض
من وراء كوتين في جدار الغياب
المرأة التي...
تسكن بين ألف لينة
وميم ترتدي قبعة السكون
وفي السكون سكينة وظل ...!(1)

إن خصوصية الكتابة ككينونة ذاتوية تجعلها من دون شك ممارسة لا واعية يختلط فيها البدء بالانتهاء، والفعل بالممارسة، «والكتابة رهان مع الذات على قول ما لا تستطيع لغات الآخرين تشكيله... هل يمكن زعم أن حال الكاتب لا تختلف كثيرا عما تورده أساطير الأولين من اليونانيين عن التأليه خاصة في كون الكاتب، بهذه النظرة ليس نصف إله واحد فحسب، سخر له عنصر وجودي يتحكم فيه، ولكن مجموعة من تلك الأنصاف يتضامنون جميعا لاستنساخ عالم مصغر شبيه في وجوده بالعالم الحيوي».(2)

وبقدر ما يرتبط هذا الخلق بحضوره يحتفظ العالم الإبداعي بوجوده، ويصير شكلا من أشكال الخلق تتجاذبه ذلك جدلية الحضور/الوجود.

وهذا العالم الإبداعي كما نتصوره «مشكل من أوليات متتالية فهو لا يحضر إلا ليغيب ولا يغيب إلا ليخضر، والحاضر من شأنه أن يتمثل الغائب، وإذا بهذا الغائب يغدو حاضرا يستدعي هو الآخر غائبا آخر». (3) بين النظرة التي تجعل منها كائنا مجتزأ، وبين كتابة الأنثى التي تحاول الخروج من الظل لتجعل من ذاتها كينونة خاصة، ولعل كتابة ليلى بعلبكي سنة 1958 في "أنا أحيا" أشبه بصرخة تلي الخروج من قوقعة الآخر، فهي إعلان عن عصيان ذي طابع نسوي تحرري كان في الواقع خطوة لامرأة عربية صوب الحداثة في مجتمع عربي بطريركي لاستعادة ذاتها والتأكيد على حضورها كقضية وجود.

1/ حضور المرأة في الفلسفة:

كثيرا ما كان دور الكتابة حول المرأة موضع جدل، وتحليل من قبل الفلاسفة أمثال أرسطو، أفلاطون، في العصور القديمة بأن "المرأة إنسان ناقص"، فبيثاغور مثلا كان يقرن الرجل بالنور، والمرأة بالظلمة في مبادئ الخير والشر... وإذا كانت في العصور الحديثة، والقديمة ممثلة في الآخر"الجوهري" في مقابل "الذات" (الرجل، المولى - في مقابل المرأة- العبد) حالة صراعية بين الذات، والذات الأخرى التي تسعى إلى مصادرة الآخر.

باستثناء ابن رشد الذي انتقد وضع المرأة في العصور الوسطى باعتبارها أداة للإنجاب وخدمة للآخر. فكانت رسالته تكمن في إمكانية علاقة تقابل (رجل-امرأة) غير أنه في العصور الحديثة سخط كل من "سان بول" و"هيجل"، "نتشه" من إمكان المساواة بين الرجل، والمرأة بصورة أو بأخرى.

« في حين إن "ديدرو" في عصر الأنوار الذي دافع عن المرأة كونها كالرجل كائنا إنسانيا، وحذا حذوه في هذا الدفاع عنها "جون استورت مل"، إلا أن فرويد أتى ليلحق بالمرأة عقد الدونية كلها من عقدة "أوديب" إلى عقدة "إلكترا"... إلى تحويل المجتمعات الحديثة المرأة إلى دمية كما هو الحال في العصر الفيكتوري، فتصبح المرأة الحبيبة، والمعشوقة امرأة امتثالية سطحية فاقدة الشخصية ومفتقرة إلى الإحساس بالكينونة الحقة، حيث تختفي العبودية تحت مساحيق الجمال، والموضة والأزياء».(4)

وهذا ما جعل "بورديو" يلاحظ الهيمنة الذكورية الحديثة التي صارت تأخذ « أشكالا مفارقة من العنف الرمزي "اللامرئي"، وغير المحسوس، العنف الناعم الممارس بوسائل الاتصال، والمعرفة والاعتراف، والإقرار في علاقة المهيمن والمهيمن عليه المتبادلة».(5)

ولعلنا ننطلق في هذه الدراسة في السؤال الذي طرحته "سيمون دي بوفوار" هل المرأة جنس آخر؟ في كتابها "الجنس الآخر" في منتصف هذا القرن!

فرغم أن قضية تحرير المرأة في المجتمعات البطريكية المحدثة دخلت صراع التفكيكية وما بعد الحداثة في نقد النزاعات التمركزية "الذكورية"، ونقضها في المجتمعات المعاصرة، فقضية تحرير المرأة تمتزج بالنزعة الإنسانية التي ترى في المرأة نموذج الإنسان المتكامل عقلا، روحا، جسدا. عكس النظرة التي ترى من المرأة دونية الشأن أمام المركز(الرجل).

لقد انطلقت "دي بوفوار" من مقولة النظرة الوجودية « لرفيقها "سارتر" في تصورها للكائن الإنساني، كونه مشروع كينونة وطورته في تأكيدها على تعالي الإنسان كإنسان، في تعالي الإنسان عن شرط وجوده المحدود بالموت والعدم، كلما ارتقى إلى درجة الكمال أو التكامل وكلما سقط في المثول أو الامتثال ابتعد عن الوجود والكينونة الحقة، فيأخذ عندها التهافت مظاهر الإحباط والاضطهاد في علاقة الإنسان بالإنسان، والرجل بالمرأة».(6)

كما ترى "دي بوفوار" أن حبس المرأة في خانة(الأم، الزوجة) دون اعتبارها إنسانا يتمتع بحريته/كرامته يعني وجودها غير الجوهري غير الفاعل، يؤدي إلى تهميشها وإقصائها، وبالتالي غيابها الفعل كوجود؛ أي ما يوافق دونيتها أمام المركز المتعالي (الرجل). « وإذا كانت "دي بوفوار" قد انطلقت من الأنثى فقد انتهت بالمرأة/الإنسان التي تقترن فيها الطبيعة الإنسانية بالطبيعة النسائية، وذلك بعكس النظرة النسوية التي تنطلق من الإنسان إلى الأنثى ككائن جوهري، متعال على الذكر في نظرة نسوية تمركزية مضادة، وفي المجال العربي مثال ذلك ما قامت به في مصر نوال السعداوي، إلهام منصور».(7)

وبذلك صارت الذات الأنثوية في كتاباتها تحمل هموم الأنثى إزاء الآخر المنغلق على نرجسيته. وهو أسلوب يحمل في بنيته إدانة للنسقين(المؤنث/المذكر) وعبر « متوازية ترميزية تعكس مرايا النص الفعل الشرس للنسق الذكوري سلوكياته ومرجعياته القائمة على احتقار الكينونة الأنوثية التي تقع فريسة هذا المجد السلطوي فنراها تخضع للثقافة الاجتماعية حين تكون جسدا يمتلك سحر الغواية مع التباسات الرؤية الأنوثية إزاء الآخر(الحميم/ الخصيم)». (8)

إننا أيضا أمام كتابة ذات طاغية تلغي الأنا الأنثوية وتهمشها، وفي الوقت نفسه هناك ذات أنثوية مدجنة، مستعبدة تتوسل سيدها، تعيش الاغتراب بنوعيه« فالاغتراب الأول هو اغتراب الأنثى عن الآخر المذكر بسبب عقم الراهن الثقافي الذي قادها بالضرورة إلى الاستجابة لأعرافه الموروثة، وأما الاغتراب الثاني فهو اغتراب الأخر القامع عن أنثاه بحثا عن كينونة تعيد له ذاته المتفتتة في يوميات الجسد والغواية، لذلك يستدعي النصّ فضاءات كابوسية تحتضن محنة المذكر المنفي طواعية عن واقعه المادي، زد على ذلك أن زمن النص في هذا المكان بعد أن تميل الشمس بوجهها قليلا نحو الأفق هو زمن سريان العتمة والتواقد الذهني الذي يسترجع نداءات توحي بوجود خلل ثقافي في راهننا المعاش».(9) في حين نجد كتابات نسائية يتمحور عملها السردي على الخطاب الأنثوي الذي أخذ صدارة السرد في رسم ملامح "شهرزاد" مع تهميش فضاء شهريار في قصص فوزية رشيد الروائية البحرينية، والتي تقرن العلاقة بينهما وفق ثقافة مرجعية، فهو«بالضرورة شهريار آخر ينبعث من رماده ليوقد في الفضاءات الأنثوية مرجعياته السلوكية والثقافية التي تحبس الفكر الأنثوي...».(10)

2/ المرأة في الكتابة العربية:

رغم وجود ثنائية تتناقض فيما بينها بين السلطة والتمرد على صفحات الكتابة ألا وهي(الرجل، المرأة) إلا أن هاته الأخيرة استطاعت أن تنال الكثير من صفحات الكتب من خلال حضورها في الحرب، الحياة....

غير أن ثنائية(الحضور/الغياب) ظل يتراوح بين دور ثانوي يقتصر على الحرب/ الحياة كشكل من أشكال التماهي، بحيث يدفع الرجل إلى استخدام النساء في الثورة كأداة لها، ثمرة المرأة، أو تحترق أو تعيين لكنها في النهاية تغيب عند انتهاء الثورة بعودتها إلى الحقل، المصنع، البيت. وفي كل هذا تتلقى الأوامر العليا« وحتى النساء اللاتي أصبحن أعضاء الحركات السياسية يجدن أنفسهن في مناخ لا يستطعن معه إلا أن يعتنقن الأفكار الذكورية الأبوية المسيطرة على الحركة...مما يفسر

بعضا من عجز المرأة عن التأثير في أي حركة سياسية ما. لقد أصابها الاغتراب كونها تدرك الانفصال الواضح بين الواقع المفروض عليها وبين الواقع الذي تنشده لنفسها».(11)

لقد ظهر في الوقت الراهن ما يسمى بالأدب النسوي كما لو أن هناك فيزياء نسائية في مقابل الإبداع الإنساني، ظهرت كتابات غير خارجة من دائرة الثنائية الذكورية أخذت حائط الدفاع عن الحق وفكرة المواطنة دون الخروج عن ثنائية الرجل- المرأة-« فإذا كان الدفاع عن الحق مرتبطا بفكرة المواطنة...خاصة في الكتابات ذات الطابع السوسيوثقافي...فإن سؤال اللحظة الوجودية الإنسانية الحقيقي هو أي مواطنة تحترم الفرد، وتؤسس مجتمعا يكتسب وجوده الجمعي من تجاوزه لقوى الطبيعة وتصوره الإنساني للإنسان؟».(12) أو تفكيك المجتمع لصالح نوع ضد نوع أو لثقافة على حساب أخرى.

إنها مساحات للاجتهاد، مساحات للحرية ليست لحساب أحد. لنصل بهذا التطلع على مقولة كانط بصدد سؤال ما الأنوار؟ بقوله:«الأنوار خروج الإنسان من حالة الوصاية التي تتمثل في عجزه عن استخدام فكرة دون توجيه من غيره؟ لذا كان شعار الأنوار عبارة تقول:

« أقدم على استخدام فكرك فالإنسان لا من موضع الذكورية ولا من موضع الأنثوية هو جوهر المواطنة».(13)

لذلك لا بد من تجاوز الخطأ الإنسانوي الذي يلغي طرفا شريكا في الحياة على حساب الآخر الممركز في السلطة المتعالية، وبصيغة أدق إمكانية تغيير« هذا الحضور العلائقي القائم على مرجعية ماضوية مجسدة - للمرأة- الشيء في مقابل المرأة- الإنسان كأفق جوهري- لأن ما هو مثالي ووهمي هو الخطاب السياسي الراهن..تجاه هذه العلاقة والمهام المنوطة بها...» (14) فتتجاوز المرأة كشيء في الكتابة يجعل منها سرحا حرا يتجاوز دائرة "شهريار" الذي يضيق عليها منافذ الصفحات الورقية ليقتلها مرتين، مرة في الكتابة ومرة أخرى في الحياة... «هناك مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى، والظلمات والمرأة».(15) فعبارة فيثاغورث هذه ذكرتها غادة السمان في "تسكع داخل جرح" و"سيمون ديبوفوار" في "الجنس الآخر" لتبرهن أن المرأة مازالت تعيش بين جدران شهريار، كما في بطلة "بيروت 75 "لغادة السمان" « وكانت سيمون دوبو فوار قد عقدت كثيرا من الآمال على الجزائر، لكن خيبتها كانت كبيرة إذ اكتشفت أن النساء اللواتي شاركن في الحرب ما زالت مسحوقات أمام الرجل، لأن اشتراكية الدولة لا علاقة لها بالاشتراكية الحقيقية». (16) بينما كانت غادة السمان تحضر رسالة الدكتوراه في لندن كان العالم الغربي يمثل في نظرها العالم الذي ستحلق فيه بأجنحة بعيدا عن الأفق الضيق لمحيطها.« وعندما رأت غادة السمان الساحة التي حرقت فيها "جان دارك" قالت: ففي بلادي مئات من جان دارك يصلبن في كل مكان وبألف أسلوب وأسلوب، يحرقن ببطء دون أن يتجمهر الناس، ويمتن ببساطة دون أن يقام لهن نصب».(17) وفي الجنس الآخر، ومسيرة سيمون دوبوفوار، القاطعة في قناعتها الفكرية شرحت كيف تحولت المرأة إلى هذا الآخر، فهي اللاضرورة وجها للضرورة، الرجل هو المطلق الموضوع وهي الآخر. (18) « ففي فيلم سيمون دوبوفوار من إخراج جوزيه دايان ومالكريبوفسكا أرادت سيمون التأثير على الجمهور فقدمت له صور المآسي التي عايشتها كأحداث هنغاريا عام 1956، كما أخرجت الشاشة كتابها المرأة المحطمة "la femme rompue" وكانت سيمون تهدف من ورائه تحريض الجمهور على اكتشاف بعض وقائع حياة المرأة اليومية». (19) فأعمال غادة السمان الروائية« مزيج من الوعي، ورواية هذه الشخصيات التي تكشف عن هويتها بحديثها أو حتى بصمتها». (20) وتبقى المرأة تبوح بهمومها سواء في الرواية / الشعر لتتيح لنفسها مساحة حرة تتنفس هواءها عبر الكتابة وتثبت وجودها الفعلي بدل تغييبها وصمتها الذي لا ينوط إلا لصالح الآخر.

الإحـــالات

(1) من مجلة البحرين الثقافية، ع38، مارس 2004، ص107.
(2) الحبيب السايح، الكتابة عن الكتابة، مجلة الثقافة، ع بعد 118، فبراير 2004، المكتبة الوطنية، الجزائر، ص24.
(3) عبد الجليل مرتاض، في عالم النص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2007، ص71.
(4) عبد الله موسى، حضور المرأة في الكتابات الفلسفية، مجلة الثقافة، الرواية الجزائرية مسارات وتجارب، فبراير 2004، ع بعد 118، ص70.
(5) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(6) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(7) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(8) وجدان الصائغ، شهرزاد وغواية السرد، قراءة في القصة والرواية الأنثوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص200.
(9) ينظر المرجع نفسه، ص201.
(10) فوزية رشيد، وثقافة العنف، وجدان الصائغ، شهرزاد وغواية السرد، ص188.
(11) ينظر عبد الله موسى، حضور المرأة في الكتابات الفلسفية، ص73.
(12) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(13) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(14) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(15) Simone de Beauvoir, le Deuxième sexe, vol 2, édition Gallimard 1949, page 116.
(16) نجلاء نسيب الاختيار، تحرر المرأة عبر أعمال سيمون دو بوفوار، وغادة السمان، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1991، ص40.
(17) المرجع نفسه، ص41.
(18) سيمون دو بوفوار، الجنس الآخر، ص15.
(19) ينظر نجلاء نسيب، تحرر المرأة، ص56.
(20) المرجع نفسه، ص46.